

ماذا كتب المستشرقون عن تراث الأحساء

يمثل أدب الرحلات والتجوال لأستكشاف تراث وحضارات الأمم والشعوب في بقاع الأوطان فنًا من فنون الأدب العالمي ، ومصدرًا مهم للدراسات التاريخية المقارنة وأحد المصادر الأثرية المساعدة في كتابة التاريخ ، وتعد كتابات الرحالة والمستشرقون نافذة لرؤية الآخر الأجنبي للحياة العامة والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة العربية وما تحمله من مشاهدات يومية لحياة الشعوب وعاداتها وتقاليدها وتقديم صورة مغايرة للتوثيق المحلي حول منهج الكتابة التاريخية .

وساهم الرّحالة الغربيين في الكتابة عن منطقة الأحساء وحياة الناس بمنهج مختلف لما وثقه المؤرخين والباحثين من أبناء الأحساء ، ورسم تنوع في منهجية الكتابة التاريخية وعرض وجهات نظر متعددة أظهرت جوانب ربما لا يراها أهل المنطقة لأنهم اعتادوا عليها مما شكل فارقاً نوعياً مابيننا ومضاعف من تراكم التجربة في دراسة أدب الرحلات بشكل عام ، وإلقاء الضوء على منهجية هؤلاء الرّحالة في كتاباتهم وانطباعاتهم حول منطقة الأحساء يكمل أطروحة توثيق تاريخ المنطقة من زوايا مختلفة الأبعاد .

وشهدت الأحساء زيارة عدد من الرحالة الغربيين خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، ومنهم الرحالة الدنماركي كان كارتسن نيبور زار الأحساء عام 1763م ضمن بعثة علمية دنماركية أستكشافية وقدم وصف عن الأحساء وأثناء رحلته أقام في الهفوف وتحدث عنها بتفصيل وصفها بالمدينة الكبيرة ومحصنة بأسوار وأبراج وتحدث عن كثافة النخيل وأشار لاستخدام قنوات الري والمياه الجوفية الزراعية وأهتم بعادات السكان المحليين واصفاً الأوضاع الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية في كتابه "رحلة نيبور إلى الجزيرة العربية "

وقدم الرحالة البريطاني ويليام بلجريف إلى الأحساء في عام (1279 - 1280 هـ) (1862-1863م) وأستهدف من رحلته الاستكشاف والملاحظة مع دراسة السكّان كعرقٍ، ودراسة أحوالهم الفكرية والسياسية والاجتماعية فقد وصف حي الكوت بأنه عبارة عن قلعة ضخمة يحيط بها خندق عميق وأسوار وأبراج تتميز بالارتفاع والسماكة، ووصف بقية الأحياء كحي النعائل وحيّ الرفعة الذي قال عن شوارعه إنها واسعة ونظيفة جداً لدرجة أنه فضّلها على نظيرتها في دمشق، حيث وصفها (وشوارع دمشق أو بريدة لا تصل إلى ربع هذا الاتّساع أو النظافة)، فهو حيّ صحّي لتمييزه بالأناقة وجمال بعض مساكنه .

كما زار المبرّز وتجوّل في سوقها وشوارعها، ووصف بقية مرافقها، ثم تحدث عن قريبة الكلابية، ووصف أسواق الأحساء وحالتها الاقتصادية والتجارية، وكذا عيون الأحساء التي قال عنها بأنها تصل إلى قرابة 300 عين من كثرتها، وسلط الضوء على النشاط الزراعي مُبدياً إعجابه بأنواع التمور والرتب لكثرتها

وخصّ رطب الخلام بإعجاب كبير، حتى قال عنه إنه (أفضل رطب الدنيا كلها).

وأما لوريمر فلم يزر الأحساء لكنه كتب عنها في كتاب "دليل الخليج" في جزأين (جزء تاريخي وجزء جغرافي - أحصائي) في عام (1908-1915 م) جمع معلومات تفصيلية عن الأحساء قديمًا وحديثًا من حيث الجغرافيا، القبائل، عدد السكان، الأنشطة الاقتصادية، وحتى المياه العذبة اعتمد في توثيقه على تقارير رسمية وشهادات رحالة وتجار ومراسلات، وأشار في كتابه للتاريخ القديم (خاصة حقبة العثمانيين وبني خالد)، وأحصى لوريمر سكان الأحساء عام 1905 وذكر بأن واحة الأحساء بما في ذلك مدينة الهفوف يحوي عدد سكانها 25000 والمبرز 8,500.

وكان عالم الطبيعة البريطاني تشيزمان من الرحالة الغربيين الذين وثقوا ملاحظاتهم حول واحة الأحساء خلال رحلته للهفوف في عام 1923م بغرض البحث في المعالم الجغرافية واجراء دراسة علمية على الحيوانات والنباتات مقدم وصفا لمنطقة الأحساء من الناحية الجغرافية والزراعية للأحساء، وخاصة كثافة النخيل والبنية الاجتماعية والعادات التي لاحظها في المنطقة كما كتب عن أهمية موقع الأحساء الاستراتيجي والاقتصادي آنذاك واصدر كتابه " في بلاد العرب المجهولة" الذي نُشر عام 1926م والمدون كمذكرات شخصيه للرحله واصفاً الهفوف قائلاً كان منظرًا طبيعيًا من البياض وقصد بذلك حجر المنازل الرملي الجيري مع خلفه داكنه من النخيل وتارة يصف الحرفيين من الأجداد ويقول كنت عندما اخرج من البيت الذي اسكن فيه وانعطف باتجاه الشرق أمر بحوانيت الصغارين الصغيره .

وخلال رحلته، جمع تشيزمان أكثر من 300 عينة من النباتات والحيوانات في واحة الأحساء، وهي محفوظة حاليًا في المتحف البريطاني وكان تشيزمان أول من قام برسم خرائط للساحل العربي من خليج سلوى إلى العقير، وحدد موقع الهفوف بدقة، يُعتبر كتابه "في بلاد العرب المجهولة" مصدرًا لفهم الحياة في الأحساء خلال تلك الفترة، حيث يصف بالتفصيل الجغرافيا، الزراعة، والحياة الاجتماعية في المنطقة .

وكتب فريدريكو فيدال كتاب "واحة الأحساء" عام 1952، أثناء عمله في شركة أرامكو السعودية وعرض في الكتاب تاريخ الأحساء الاجتماعي والزراعي، ومعلومات مفصلة عن قرى الأحساء وسكانها وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، بالإضافة إلى دراسة للعيون والينابيع وآبار المياه .

وكتبت الرحالة الإنجليزية الليدي آن بلنت عن الأحساء في كتابها "مذكرات الرحلة إلى الشرق" وفي هذا الكتاب وصفت الأحساء بأنها منطقة غنية بالزراعة، خاصة بالنخيل، مع الإشارة إلى أهمية النخيل في اقتصاد المنطقة. كما ذكرت جمال الطبيعة في الأحساء، مثل الواحات والمسطحات الخضراء التي توجد في المنطقة.

وزار الرحالة الدنماركي باركلي رونكيير الأحساء عام 1912م وأهتم برصد المزروعات التي على امتداد الأحساء من النخيل والبساتين التي في الهفوف وكتب كتاب "عبر الجزيرة على ظهر جمل" وترتكز منهجية الرحالة والمستشرقون في الكتابة التاريخية بأنها وصفية، تعتمد على المشاهدة الشخصية والانطباعات الذاتية والهدف الغالب عليها استكشافي وأحياناً تجاري ونادرة ما تعتمد على المصادر

المحلية أو الروايات الشفوية وتفتقر في كثير من الأحيان لمعرفة وفهم اللغة العربية ، مما يؤثر في فهم السياق وقد تشمل الكتابات تحيزًا ثقافيًا أو فهمًا ناقصًا للعادات والتقاليد وتشويه بعض الحقائق بدافع استشراقي وعدم فهم السياق المحلي بدقة ومن حسنات توثيق المستشرقون أن مشاهداتهم كانت في فترات لم يكن فيها توثيق محلي كافٍ ويقدمون منظورًا خارجيًا يمكن أن يكون محايدًا في بعض الجوانب.

وأما المؤرخون والباحثون من أهل الأحساء والمؤرخين المحليين فأنهم اعتمدوا في الغالب على منهجية أكاديمية وتعتمد على الوثائق المحلية، والروايات الشفوية، والمخطوطات وتهدف إلى الحفاظ على الهوية التاريخية والثقافية للمنطقة ومصادرها أوسع من الرحالة، وتشمل أرشيفات محلية، ووثائق أوقاف، وسجلات المحاكم الشرعية ومن أمثلة المؤرخين المحليين المؤرخ عبدالرحمن الملا والمؤرخ عبدالخالق الجنبي والمؤرخ حمد الجاسر وقد وثق جوانب من تاريخ الأحساء والمؤرخ جواد الرمضان والمؤرخ الشيخ محمد الحرز ويمتازون باطلاع دقيق على البيئة والسياق المحلي واهتمام بتفاصيل قد يغفل عنها الرحالة الأجانب وتوثيق باستخدام مصادر شفوية ومكتوبة محلية ومن الناحية العلمية فأن المؤرخون والباحثون من أهل المنطقة هم الأفضل في الدقة السياقية، في فهم الجغرافيا الثقافية، واستخدام مصادر داخلية لا يعرفها الأجانب.

إلا أن الرحالة والمستشرقون لهم السبق في توثيق تاريخ الأحساء القديم والحديث في مراحل زمنية مبكرة (خاصة قبل النهضة التعليمية)، لكن يبقى أن التوثيق العلمي يتطلب التعامل مع أعمالهم بمنهج نقدي خصوصاً في الاستدلال العلمي في الدراسات التاريخية الحديثة، ويُعتبر الجمع بين المصدرين هو الأفضل والاستفادة من توصيفات الرحالة (كشهادات زمنية) للمصادر الأولية وتحليلها في ضوء السياق المحلي الذي يقدمه المؤرخون والباحثون المحليون.